أسطورة العهد الذهبي (L'Age d'Or)

بقلم :" ماري جوزيت بينيجام بونطان "
Marie- Josette Bénéjam- Bontems

ترجمة: د. عبد المجيد حنون
مخبر الأدب العام والمقارن / جامعة باجي مختار –عنّابة–

إذا كانت الأسطورة حكاية، تنتمي إلى رواية شفوية أو مكتوبة بإمكانها أن تثير في ذهن مستمع أو قارئ تصوّرات جماعية قديمة، لها علاقة بطموحات ووقائع معاصرة؛ فإن أسطورة العهد الذّهبي تبقي، في هذه الحالة، أفضل مثال في الأساطير البشرية الكبرى. فهي حاضرة في العديد من الثقافات، منذ الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر. بفضل دوامها صورة عن سعادة الإنسان في رعاية الآلهة أو الإله، على اعتبار أنها حسن ختام للقدر الكوني السّعيد.

عرفت أسطورة العهد الذّهبي عبر الزمن –انطلاقا من بعدها الديني في الأساس– تغيرات جعلتها موقعا مشتركا في التراث الشّفوي، ومادة لتحولات معقدة في التراث الأدبي؛ وبذلك لم تكن مجرد موضوع بسيط لتقليد جمالي، وإنما اكتست في الثقافة الغربية بعدا فلسفيا، وتوظيفا سياسيا يسّرا استمرارها. إنها لمطاوعة مدهشة تتوفر في أسطورة العهد الذّهبي ذات المواضيع المتكررة الخاضعة باستمرار إلى متطلّبات عرض (فلسفي)، وإلى طموحات سياسية لشعبٍ ما، تحولها لتمنح الخيال صورة متجددة عن السعادة الإنسانية التامة.

ولمعرفة أسطورة العهد الذهبي الحية بتحريفاتها المختلفة، يحسن أن لا ننسى النموذج الأصلي الذي يتضح من خلاله بناء كل الروايات الممتدة من الشّرق إلى الغرب، عبر البحر المتوسط، طيلة أربعة آلاف سنة.

وكلما وفرت الآلهة للبشر السلام والخصب والعدل معا بنظام يكون في الوقت نفسه طبيعيا وإلهيا، تكون أسطورة العهد الذهبي حاضرة من خلال صورة تتكفل بساطتها المستمرة بربط الصلة مع اللاوعي الجمعي، والوفاء للذّهنيات الخاصة أيضا.

لقد مُنحت تسميات مختلفة في كل ثقافة إلى أسطورة العهد الذهبي التي لم تبلغ رغم قدمها، الوعي التام بوحدتها وأهميتها إلا الآن. فأُطلقت عليها تسمية – العهد الذهبي – في روما خلال القرن السابق للمسيح فقط: Tempus Aureum حسب "هوراس" (إيبوة [1]، 16, 64), وAurea Aetas حسب "أوفيد Ovide" (الإنسلاخات[2] ، 1 , 89). وفي البداية، برزت أسطورة العهد الذهبي التي عرفت الوجود في بلاد سومر دون ريب منذ أربعة آلاف سنة بمثابة أسطورة تكوين (Genese) ارتبطت بسيرة رب عظيم. وما ينبغي أن نلاحظه أن قراء ملاحم كونية عتيقة من المحدثين هم الذين منحوا تعسفا تسميات لأقدم عهود العالم الذهنية انطلاقا من اسم الإله أو اسم المكان الذي تجلت فيه العناية الإلهية مثل: "أسطورة ديلمون" في بلاد سومر؛ و"أسطورة رع وإيزيس" في مصر؛ و "أسطورة عدن" في إسرائيل؛ و" أسطورة كرونوس" في بلاد الإغريق، زيادة على وجود "جنات" إغريقية أيضا (جزيرة السعداء، وفردوس هوميروس)؛ و"أسطورة زحل" [3] التي كانت تنافس في روما أسطورة العهد الذهبي Tempus Aureum. وكان العهد الروماني المنطلق الأساس لتسمية العهد الذّهبي ورسوخها نهائيا في التراث الأدبي الأوروبي. وعلى الرغم من ذيوع قصيدة "فيرجيل" الرعوية الرابعة طيلة العصر الوسيط، باعتبارها رعوية مسيحية تبشر "بالعهد الذهبي" المسيحي، فإن عهود زحل (Saturnia Regna) لم تطبع التراث الأدبي الأوروبي بطابعها. ومع ذلك، فإن البعد السياسي لأسطورة كرونوس وأسطورة زحل ما فتئ ينمو منذ النهضة إلى أيامنا هذه؛ وبذلك يكون العهد الذهبي الإغريقي الروماني مغذّي كلٍ من وهم المدينة الفاضلة الطوباوي في القرن التاسع عشر، والنقد الاجتماعي في القرن الثامن عشر (حكايات فولتير)، والفكر الثوري في القرنين التاسع عشر والعشرين. والواقع أن الرومان سيسوا، عندما ربطوا أسطورة العهد الذهبي بتاريخهم، أسطورة دينية الجوهر، وجربوا في الوقت نفسه، شروط تطبيق أيديولوجية.

لقد كان الإعلان عن عودة عهود زحل Saturnia Regna في مستقبل قريب تحت راية الأمير –مثلما فعل فيرجيل في رعويته الرابعة– بمثابة الاستجابة إلى رغبة شعب في عودة السلام والخصب والعدل في ظروف استثنائية.

وفي نهاية القرن العشرين، تعرف عدة شعوب في المعمورة رغبة مشابهة: الأمر الذي يفسر انبعاث "أسطورة العهد الذهبي" في الفكر المعاصر. وتغلب على روايات أسطورة العهد الذهبي الشرقية والإغريقية الرومانية المختلفة صور تمثل ثلاثية: السلام والخصب والعدل التي تنتمي إلى نواة الأسطورة التأسيسية. وغالبا ما تحافظ تلك الصور على مسحة الحكاية النموذجية الأصلية التي نبعث منها الروايات الأدبية اللاحقة حتى لو تغير سياقها الثقافي.

يتضح أول عنصر في الثلاثية من خلال عرض الحياة المشتركة ما بين الآلهة والبشر في زمن السلام الأصلي. ويرجع هذا التصور المرتبط بأسطورة الوحدة الأساسية في بلاد سومر. إنه "عهد ديلمون الذهبي" الذي يقع فيما قبل التاريخ (والذي تروى عنه الانشقاقات البشرية ونزاعاتها). وتناقض هذه الأسطورة أسطورة بابل، التي تؤكد أن البشرية جمعاء كانت تحمد الرب العظيم، زمن إنليل، بلغة واحدة. والأرجح أن ما يشغل بال بلاد ما بين النهرين هو حرصها على السلام الشامل الذي ساد جزيرة في مطلع الأزمنة حسب النص السومري.

وتقرن مصر-القطب الآخر للعالم الشرقي- منذ الألفية الرابعة، السلام بين الأحياء بمعيار كمال من كان " أول مرة ". فيؤكد عهد "رع في الماء" و "على وجه الأرض" الذي انتهى بالقطيعة ما بين الرب الخالق وخلقه وحدة النظام الكوني ، الإلهي والبشري ، الذي تجسده معاث (Maàt) [4] . ونجد الأمر نفسه في الكتاب المقدس، حيث تمثل جنة عدن الوحدة الحميمية بين (يهوه) وأول زوجين جمعهم سلام جنة.

وتحتفظ بلاد الإغريق بذكرى عهد سلام ما بين الآلهة والبشر قبل القطيعة التي كرستها "أسطورة برومثيوس" والمصائب التي جاءت بها "باندوره Pandora "[5] . وانطلاقا من هاتين الأسطورتين أكد "هيزيود Hesiode " في بيت شعري مشكوك فيه (البيت 108 من مؤلفه "الأعمال والأيام") أن: "الآلهة والبشر من أصل واحد ينحدرون". وتلمح أيضا القناعات الأورفية الفيثاغورية وقناعات كل من أومبيدوكل Empedocle وبيندار Pindare إلى هذا الحلم العظيم بالوحدة الأصلية الذي يمثل أساس السلام.

أما عنصر الثلاثية الثاني -أي الخصب- فتوضحه صورة الجنة، والجزيرة، أو الواحة التي تمثل خصب الأرض في شكل فواكه، وأزهار، وأشجار

ونباتات، قرب مياه جارية. وكانت إسرائيل صاحبة الصورة النموذجية الأصلية الأقوى في "جنة يهوه"[6]. ويتكرر خصب جنة عدن في التحالف الجديد بين الشعب وربّه (حزقيال ، 36 ، 28 ، 30) وفي "معجزة الواحة" (إشعياء 55، 1) فيكون، نتيجة لذلك، الخصب المعجز دليلا على وجود الإله في العالم.

لقد ورثت الأيديولوجية الملكية في بلاد ما بين النهرين وفي مصر، هذا التصور الديني عندما جعلت الحاكم يضمن الخصب لشعبه.

وصوّر الإغريق جزرهم جنات، فأصبح خصب الأرض التلقائي، منذ زمن "هيزيود"، السمة الأساس في أسطورة العهد الذهبي. وبذلك يكون فيرجيل قد "رومن" [7] الجنات السّالفة فقط عندما جعل إيطاليا أرض الخصب.

أما العنصر الثالث من الثلاثية –أي العدل– فكان الأبطأ في الظهور. كان التركيز فيه على الإنسان الذي اتخذ من الإله مثلا. ففي بلاد ما بين النهرين خلق ارتباط الأسطورة بالأيديولوجية الملكية علاقة مثلى ما بين الحاكم ومحكوميه. وفي مصر، اقترن العدل بالربة "معاث Maàt" التي ترمز إلى تماثل بنية الكون، وإلى الطبيعة والمجتمع . ويجسد الفرعون، في تشبهه بها، كمال الألوهية في الإنسان. وجاءت من هذين الحضارتين العظيمتين الصورة الثابتة لملك إله يضمن سعادة شعبه.

وجعلت إسرائيل العدل، ببعده الديني والاجتماعي الإنساني، خميرة التاريخ؛ فخلص الأنبياء العبرانيون، عندما وجهوا شعب الله نحو عهد ذهبي جديد موقعه في آخر الأزمنة البشرية من الزمن الدوار ووضعوها على طريق البعث.

وفي بلاد الإغريق، تأمل المفكرون –منذ أن أكّد هيزيود أصل العدالة الاجتماعية الديني– في القوانين المثلى القادرة على ضمان التوارث في المدن. فرجع أفلاطون إلى "أسطورة كرونوس" ليحدد الحاكم الصالح. وكانت نتيجتهم واضحة تتلخص في أن العدل ذو أصل إلهي. وأن الإنسان الملكي إلى حدّ الألوهية، العادل، هو رمز البرية المتجددة.

وضع فيرجيل –وريث التراث الإغريقي المخلص– العدل في صميم عهود زحل وجعله سمة الإله العتيق زحل اللاتينيين. وأصبح العهد الذهبي الروماني Saturno Regnante النموذج الأصلي للملكية اللاتينية التي

ستكون أساس الإصلاح الأوغسطي؛ وبذلك تتأكد في روما – كما هو الشأن في الشرق وفي بلاد الإغريق سابقا– نزعة أسطورة العهد الذهبي السياسية.

ويكشف تاريخ هذه الأسطورة في الثقافات الخمس –المعروضة هنا بإيجاز– عن أمر ثابت يتمثل في أن الأسطورة تظهر زمن الأزمات عندما تختلط الأمور ضمن سياق تنبؤي يرتبط ارتباطا وثيقا بالرؤى. ففي الإسكندرية، على سبيل المثال، خلق صدام الثقافات بعد انهيار إمبراطورية الإسكندر، في القرون الثلاثة التي تسبق عهدنا، جوا ملائما للإعلان عن هشاشة الإمبراطوريات (كتاب دانيال) وعن قدوم مملكة لا نهاية لها. فظهر في هذا السياق، أدب التنبؤات، وقدم "نهاية العالم" و "العهد الذهبي" النهائي جنبا إلى جنب ضمن (الأحاديث السيبيللينية Oracula Sibyllina) [8].

وظهر في روما أيضا، في القرن الأول قبل الميلاد الخوف من "فناء روما" والأمل في عودة "عهود زحل". وتشهد على هذا الوضع الذي يتجاوز فيه اليأس مع الأمل إيبودة (Epode) هوراس السادسة عشر ورعوية فيرجيل الرابعة؛ اللتين تشبه نبراتهما تماما نبرات الأنبياء العبرانيين الذين وضّحوا للناس "اللعنات" و"النعم" حيث تظهر إلى الوجود في مثل تلك الحالات توليفات جسورة.

لقد أيقظ التأثير الإسكندري الموروثات الإغريقية والإيطالية؛ فتذكر الناس النبوءة الفيثاغورية التي ربطت سلالة الذهب عند هيزيود بعودة الأشياء الأبدية: وروجت الفيثاغورية الجديدة، على وجه الخصوص، فكرة عودة عهود زحل؛ لأن قنوط الرومان خلق، بعد قرن من الحروب الأهلية، الحاجة الملحة لجواب: فجاءت أسطورة العهد الذهبي برسالة الأمل على لسان أعظم الشعراء. ثم يأتي المفكرون والسياسيون، بعد ذلك، محاولين أن يحققوا الوعود...

وهكذا يبقى دور أسطورة العهد الذهبي الحية على تلك الحال في نهاية القرن العشرين يتراوح بين الأمل وسراب العادة على وجه الأرض.

هوامش الترجمة: (من وضع المترجم)

1- إيبودة Epode: مقطوعة شعرية غنائية يونانية الأصل ذات أبيات متناوبة، طويل فقصير فطويل ...إلخ.

2- الانسلاخات Metamorphoses: خروج الشيء من الشيء في صورة أخرى أحسن أو أسوأ من الأصل، وأفضل تعبير الانسلاخ تماشيا مع المفهوم العلمي للتعبير ، ومع الاستعمال القرآني "يسلخ الليل من النهار".

3- زحل Saturne: ساتورن عند الرومان أو كرونوس عند الإغريق، ابن الأرض والسماء، استولى على ملك أبيه وأبعد أخاه "تيطان" عن الملك شريطة أن يفني ذريته الذكور كي لا يخلفوه فراح يلتهم أبناءه، غير أن زوجته "ريا" أخفت مولودا، ولما كبر أطاح بوالده، فاستمر الحكم بذلك في نسل زحل. والأرجح أن زحل –ملتهم أبنائه– يرمز إلى الزمن الذي يلتهم الشهور والأيام، ولذلك يجسد عادة في هيئة رجل عجوز على رأسه كرة، الأمر الذي جعل اسمه يطلق على كوكب زحل. راجع:
P. Commelien :Mythologie Grecque et Romaine , Garnier Frères , Paris 1960 p . p : 9-12..

4- معاث Maàt: ربة العدل عند المصريين القدامى وتوأم الإله "شو" تجسد نبض الحياة. تعرف بريشة نعام على رأسها. (Grand Larrousse T 6 éd 3) .

5-باندورة Pandora: أول امرأة في هيئة ربة بعثها الإله زويوس محملة بكل المهارات وجرة ملؤها المصائب و الهموم، لمعاقبة الرجال الذين حمل لهم بروميثيوس النار من السماء.

6- يهوه: اسم الإله كما ورد في التوراة.

7- رومن: أي جعلها رومانية.

8- الأحاديث السيبيللينية Oracula Sibyllina: أحاديث تنسب إلى عرافات أو منجمات تدور في مجملها حول التنبؤ بأحداث القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد بمنطقة الشرق الأدنى، جمعت في 12 كتاب باللغة اليونانية. وهي في الأساس نوع من الدعاية اليهودية تحت قناع وثني؛ ثم ساهمت في إثرائها عبر الزمن ثقافات متعددة كالثقافة الهيللنستية في الإسكندرية قبيل ميلاد المسيح، والثقافة الرومانية بعيد ميلاد المسيح؛ غير أن الطابع اليهودي العبري يبقى السمة الغالبة على كتبها المختلفة.

وفي العصور الوسطى حظيت الأحاديث السيبيللينية في صيغتها الإغريقية اللاتينية بعناية كبيرة عند آباء الكنيسة، الأمر الذي سمح لها بالتسلل إلى الآداب الإبداعية بعد ذلك.

البيبليوغرافيا :

1- Horace , *Odes et Epodes* , Paris , Les belles lettres, 1976.
2- Ovide , *Les Métamorphoses*, Paris , Les belles lettres , 1961.
3- Tibule, *Elégies*, Paris, Les belles lettres, 1961.
4- Vtrgile ,*Georiques*, Paris , Les belles lettres , 1968.
5-Virgile , *Enéide*, Paris , Les belles lettres, 1977.
6-Virgile, *Bucoliques*, Paris, Les belles lettres, 1983.
8- F. Châtelet , *Les Idéologies*, Verviers, Marabout, 1981.
9-G. Dumézil , *La Religion Romaine archaïque*, Paris , Payot, 1966.
10-M.Eliade, *La Nostalgie des Origines*, Paris, Gallimard, 1978.

11-B.Gatz, *Weltalter Goldene Zeit und Sinnverwandle*, Vortsllungen, Spudasmata, Hildesbeim,1967.
12-P.Grimal, *Le Lyrisme à Rome*, Paris, Puf, 1978.
13- A.Novarro, *Les Idées Romaines sur le progrès d'après les écrivains de la République*, Paris, Les belles lettres, 1983.
14-J.Perret, *Daphnis Pâtre et héros : Perspectives sur un Age d'or*, Paris, R.E..L , 1983.